تقديم

فضيلة الشيخ

خميس بن راشد العدوي.

العلم هو ثمرة التعقل الإنساني، وأينما وجد الإنسان فمعنى ذلك ظهور أثره عبر الأزمان اللاحقة، ولا راد لحكم العلم؛ مهما رانت على حقائقه الغشاوات، فهي بمرور الأزمان تتبدد لينبلج نور العلم من جديد، أزعم أن هذه الأبجدية البسيطة هي قانون عتيد يحكم تعقل الإنسان وهواه، تعقله الذي يتمثّل في العلم، وهواه الذي قد يجنح إليه تمذهبه وتأدلجه، وهذا عين ما أبصر به جدل قضية الإسلام والاستشراق، والذي تحولت في هذه الأيام إلى جدلية ذات معالم وأطر؛ لها وعليها كأي قضية يطأ الناس ساحتها، فالاستشراق علم، يبحث في الشرق الإسلامي؛ دينه وتأريخه ومذاهبه ولغته وسائر مداخله ومساربه، علم يبتغي الوصول إلى الحقيقة بقدر تمكن مناهجه، وهو بمسيره هذا في صعود ونزول، ولا ضير في ذلك فهذا من سنن الله في الوجود، ما قد يكبو فيه اليوم يربو به غداً، إلا أن الجناية على العلم لمّا يتدخل الباحث بمذهبه فيما يبحث فيه، وينتحل العلم لأجل معتقداته، ويسخره في خدمة أيديولوجيته.

وهذا ما سار عليه بنظري الاستشراق اليهودي؛ حتى أصبح له خط خاص يميزه من بين خط الاستشراق العام، ومع أن المستشرقين اليهود قدموا للمعرفة علماً لا ينكر، ووجد فيهم من يتجرد للعلم، إلا أن الصبغة اليهودية ظهرت على عموم هذا التوجه من الاستشراق، مما يجعل القارئ في حذر مما يكتبون.

هذا التوجس المبرر من عمل الاستشراق اليهودي يلزم أن لا يكون هاجساً انطباعياً تزخر به النفس الإنسانية، أو النفس المسلمة، بل يجب أن يعالج بموضوعية، بالقدر ذاته ما نطالب به الاستشراق، والاستشراق اليهودي، وقد قدمت دراسات وكتبت مقالات في هذا الجانب، إلا أن العلم لا يؤمن بالطرق المنتهية، فهو ينفتح أمام كل من يطرق أبوابه، وفي هذا المقام يأتي كتاب «الاستشراق اليهودي، رؤية موضوعية» لأستاذنا

الدكتور محمد عبد الرحيم الزيني أستاذ الفلسفة الإسلامية بمعهد العلوم الشرعية في مسقط بسلطنة عمان، الذي تتبع فيه المستشرقين اليهود، ووضع لهم معجماً يمكن للقارئ أن يرجع إليه مستفيداً من طرحه، وهو للباحث مدخلاً يمكنه أن يستنير به في دراساته حول هذا الفرع من العلوم، والكتاب بحق يقرب له مسافة شاسعة في هذا المضمار.

جاء الكتاب سهل العبارة رائق التراكيب قريب المنهل، بذل فيه أستاذنا جهداً ملموساً من تقصي المناهج المضمرة في الاستشراق اليهودي، ولمّا نقول «المناهج المضمرة» فلا يعني ذلك المحاكمة على النوايا والمعتقدات، وإنما هو الكشف عن المناهج المحرِكة والمؤطِرة للعلم، التي ربما تسحب المعرفة من رحاب العلم إلى مضيق المذاهب، وقد أشار الدكتور محمد عبد الرحيم الزيني في ثنايا معالجته للموضوع إلى ثلاثة توجهات في هذا النوع من الاستشراق، هي:

- التجرد للعلم والبحث بموضوعية، وبذل الجهد في الخروج من رواسب الدين اليهودي وما تركه التاريخ اليهودي من أثر عميق في بنية المعرفة الإنسانية، وهذا تيار قليل، وذلك لصعوبة السباحة فيه، ولالتحامه بالمعرفة كالتحام اللحم بالعظم، لا يخرج إلا بشق الأنفس، ومع ذلك لم يعدم سالكوه.
- التأثر بالبنية المعرفية المنبثة في معظم المفردات التي تمس عمل الاستشراق، سواء من حيث الروايات اليهودية الخالصة، أو ما سرى في المسيحية من اليهودية، أو الروايات الإسرائيلية التي اندست بكثافة في الثقافة الإسلامية، وأصحاب هذا التيار قد يكونون غير متعمدين مجانفة الحقيقة ولا مستنكفين عن الموضوعية، إلا أن الأثر اليهودي قوي إلى حد الخفاء في كثير من أوجه التكوين المعرفي للمنطقة التي يبحثها الاستشراق عموماً، والاستشراق اليهودي خصوصاً، مما يجعل الباحث، أي باحث؛ فضلاً عن الباحث اليهودي، غير قادر على اكتناه الحقائق من خلال الركام اليهودي المتراص عبر الدهور، وقد وجد لفيف من المستشرقين اليهود الذين تغيّوا الحقيقة إلا أنها خفيت على كثير منهم ولم يدركوا كنهها.
- اتخاذ علم الاستشراق مطية يعبر بها اليهود -خصوصًا أصحاب التوجه الصهيوني- صحراء الثقافة العربية، ويجهزون بها على معالم الحضارة الإسلامية،

وهذا كان توجهاً واضحاً عند كثير المستشرقين اليهود، حيث اتخذوا من الأساطير اليهودية سبيلاً لفرض أوهامهم على واقع الناس، وقد ظهر ذلك واضحاً في احتلالهم أرض فلسطين، وفيما دبجته أقلامهم.

حاول أستاذنا الكريم محمد الزيني أن يكشف عن هذه التوجهات، سالكاً في ذلك مسلك الموضوعية، ورغم حسه الإيماني وعاطفته الإسلامية -وقد ظهرا بوضوح في الكتاب- إلا أنه بذل جهده لتوخي الموضوعية، وقدا أشار بدون مواربة إلى هذه التوجهات الثلاثة.

أين يلتقي القارئ مع المؤلف وأين يفارقه في الآراء المطروحة لا يؤثر على قيمة العمل وجدته وجديته، فالاختلاف من شأن البشر، وعلامة صحة للموضوع، وإنما ما أريد أن أكد عليه هنا أن الكتاب إضافة فعلية للمكتبة العربية والإسلامية، أرجو الله تعالى أن يستفيد منه المبتدء والواصل، والطالب والأستاذ.

أختم هذه الأسطر بما يجب عليّ في حق أستاذنا الدكتور محمد عبد الرحيم الزيني، فقد كنتُ أسمع عنه من طلبته في معهد العلوم الشرعية، بأنه أستاذ متميزٌ في علمه، متوجه نحو البناء العقلي للطلاب، بإزاحة التفكير اللامنطقي عن أذهانهم، وبالربط بين حقائق الدين وحقائق الحياة، وبأنه أستاذ عظيم بخلقه القويم، حيث يلزم مكارم الأخلاق، ويبث في طلابه الأمانة العلمية والإنصاف والموضوعية، فسعيت إلى لقياه، فوجدته يعظم خلقاً عما وصف، وينوف علماً عما سمعت، وقد انعكس ذلك على دراساته، التي جاءت مبتعدة عن الغلو والشطط، ملازمة البحث والتنقيب، متسربلة بأخلاق العالم الأمين، فكانت معرفته مكسباً لي، ووقوداً أستمد منه استمداد التلميذ من شيخه، راجياً الله تعالى أن ينفع بعلمه طلابه وكل من يطالع كتبه.

هذا؛ والله ولي التوفيق، وهو من وراء القصد.

خميس بن راشد العدوي.

بهلا، سلطنة عمان.

١٤الخميس رجب ١٤٣٢هـ.

١٦ يونيو ٢٠١١م.

مقدمة

١- بـدأت الكتابـة في هـذا البحـث في أول يوليـو ٢٠١٠، ونحـن نعـاني في مصر المحروسة معاناة تاريخية ربما لم تشهدها عبر تاريخها الطويل، ومشكلاتها تتابع وأحداثها تتفاقم؛ احتجاجات طبقية ومهنية وفئوية لا تتوقف، تتدفق يوميا كنهر النيل، مئات وآلاف من الشعب المظلوم، تذهب تعرض شكواها على مجلس الشعب المزور، مثل الفلاح الفصيح، وتقول في صوت واحد مع ابن حزم (٤٥٦هـ) وهو يشكو مماليك الطوائف: «اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور - يتركونها عما قريب - عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال - ربما كانت سبباً إلى انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم - عن حياطة ملتهم التى بها عزوا فى عاجلتهم، وبها يرجون الفوز فى آجلتهم.»

كانت الجماهير تجأر بالهتاف تعبر عن الظلم الواقع على كاهلها، وتصرخ تستغيث من الفساد والإفساد والاستبداد والقهر ووأد كرامة الإنسان وتغييب وعيه وحريته ووجوده، وتئن من ارتفاع الأسعار وتدهور الحياة المعيشية، فلا يقابلها النظام إلا بالأمن المركزي؛ بعصيه الغليظة وقنابله الحارقة المسيلة للدموع والبكاء وجلب الأحزان وهراواته القاتلة وعقول رجاله المتخلفة؛ فهي لا ترى ولا تسمع ولا تفهم، والأوامر الصارمة التي تستهين بحياة البشر فنحن في نظرهم حشرات لا تستحق إلا السحق بالأقدام، نظرة متعالية إلى أفراد الشعب فهم يملكون القوة والثروة وأمريكا تقف من خلفهم، علاوة على الاستهتار واللامبالاة من النظام، هذه نقطة؛

النقطة الثانية علاقة النظام مع إسرائيل؛ فرئيس الدولة جاثم في شرم الشيخ ليس له عمل ولا وظيفة ولا هموم داخلية و لا تفكير، إلا حماية إسرائيل وتأمين حدودها وخدمة

مصالحها بطريقة مستفزة لمشاعر المصريين بخاصة ومشاعر العرب بعامة، ووصل الأمر أنه تفرغ فترة سنوات وسنوات لإنقاذ «الجندي الإسرائيلي» الأسير لدي حماس ويقابل رؤساء هذا الكيان الغاصب أكثر مما يقابل قادة العرب، وكل التصرفات والأفعال والأقوال تؤكد حماية هذا النظام الفاسد، للكيان الاستيطاني الغاصب والدفاع عنه.

لقد نسى هذا الرجل أو تناسى «أن ما حدث في فلسطين يمثل جريمة، وهي بتعبير رجال القانون تعتبر جريمة مستمرة» (١)

أضف إلى ذلك امتلاك إسرائيل للسلاح النووي بالقرب من القاهرة «، وهي دولة عدوانية خاضت أربعة حروب ضد مصر في مدى نصف قرن، وهي دولة استيطانية تعتمد على الكذب والتوسع والعدوان، فإذا لم تكن فلسطين في هذا الإطار ذات أهمية أمّنية لمصر، وإذا لم تكن إسرائيل بوصفها الحاضر مجال خطر يتهدد الأمن المصري والسوري واللبناني فما هو الخطر إذاً؟ إن من لا يدرك مخاطر ما نحيا فيه الآن من ظرف سياسي وعسكري محدق بنا، من لا يفعل يكون مفرطا في حق مصريته فضلا عن أن يكون مفرطا في عروبته وإسلاميته». (٢)

الحمد لله التاريخ له ذاكرة قوية لا تنسى شيئا ولا يصيبها «الزهايمر»، وصفحته طويلة عريضة تسجل الأحداث الإيجابية والسلبية والمؤرخون متأهبون لتسجيل الشاردة والواردة، أقلامهم في أيديهم وأوراقهم منشورة أمامهم، وقلوبهم مشحونة بالغضب والسخط، وعقولهم تحلل كل الوقائع وتستنبط النتائج ولا ترحم كبيرا ولا صغيرا.

ظل هذا النظام الفاسد المستبد يستهين بمقدرات شعب النيل؛ يسرق أقواته وينهب ثرواته ويزور انتخاباته، ويسفه طموحاته ويهدم مؤسساته التعليمية و العلمية، ويفسد أخلاق المفكرين والعلماء والمشايخ والقضاة بالإغراء بالمناصب ومنح المزايا والهبات والرواتب والبدلات، وإيقاعهم في شبكة الفساد، وبؤرة المؤامرات، ويبيع مصانعه لمجموعة من المغامرين النصابين اللصوص ويشاركهم في نهب عرق الشعب النبيل،

(١) طارق البشري : العرب في مواجهة العدوان ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ص٣٣
(٢) طارق البشري : العرب في مواجهة العدوان ص ١١

ويدمر متعمدا واعيا الزراعة التي هي عصب الاقتصاد، ويعول على الاستيراد خدمة لهؤلاء الأفاقين الذين أمسكوا بزمام السلطة والمال، وفي الوقت نفسه، يجرح مشاعر الشعب العربي بردوده المتهافتة و مواقفه المخزية، واستخذائه أمام العدو الغاصب وانبطاحه أمام إسرائيل وأمريكا، وأوشكت شمس المحروسة أن تغرب، وخفت صوتها وانسحب ضوؤها من دول آسيا وإفريقيا وانكمشت داخل حدودها مثل الشرنقة الذابلة أو الرجل المريض، أو الشيخ المحتضر الذي داهمته الأمراض في جسده وأصبحت «المحروسة» في ذيل الدول تعاني من الأمراض الخارجية والداخلية، لقد انسحقت من الفقر والذل والفساد وخرجت من التاريخ.

٢- في ٢٥ يناير ٢٠١١، استيقظت المحروسة تغسل وجهها في مياه النيل المتدفقة، وتعانق النجوم في السماء، وتحرك أبو الهول ونزل إلى ميدان التحرير، وانطلق البركان الثائر وخرج الشعب من سجنه الرهيب يكسر قيوده، يقوده شبابه الغض هادرا كمياه النيل عند أسوان صامدا في وجه البطش والعسكر والطغيان مثل الأهرام، وتقدمت جموع الشعب الطيبة بقلبها الأخضر مثل أرضها الطيبة؛ تزرع البسمة والأمل في العيون، وتعيد البهجة إلى القلوب وتطلق الضحكة من سجنها فتملأ الفضاء سخرية واستهانة من جلاديها، انطلق المارد من قمقمه وخرجت الملايين منفجرة في وجه الطاغوت معلنة العصيان والتمرد والثورة، وقاومت بصلابة جرانيت مسلاتها الشاهقة و عزيمة بناة السد العالي وإصرار جنود أكتوبر، وضحت بأبنائها أطفالا وشبابا رجالا ونساء، ثم أخيرا انتصرت انتصارا ساحقا استيقظ العالم كله على وقع خطوات الشعب الواثقة الوثابة وصوته الهادر وهتافه المدوي وانتصاره الباهر، وسقط النظام برموزه الفاسدة ومؤسساته الفاشلة وشعاراته المزيفة سقوط أوراق الخريف أمام العواصف المدمرة، إنهار انهيارا سريعا بأسرع مما كان يتصور الثوار أنفسهم، انهيار البيوت القديمة الآيلة للسقوط. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]

؛ نعم إن الباطل لا يستطيع أن يقف أمام الحق وحتمية التاريخ ومعطيات العقل وأوامر الرب تؤكد أن الانتصار يكون لأوليائه المتقين المدافعين عن حقوقهم، الذين يضحون بأرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الحق، وقيم العدالة ومقررات الدين، و زوال الباطل بكل ما يمثله من أفك ومؤامرات وشرور وسيئات وظلام وظلمات.

هكذا أشرقت شمس الحرية على «مصر المحروسة» ولدت ولادة روحية جديدة، حطمت أغلالها، كسرت قيودها، عادت الروح إليها وعادت إلى حضن أمتها العربية الكبير، تتكلم بلسان عربي مبين، وليس بلسان عبري خافت ذليل مهين، تشارك مع أمتها العربية في بناء مجدها وتعيد صياغة آمالها وطموحها وتاريخها من جديد على قواعد الحق والعدل والحرية وتكافؤ الفرص والتسامح والمحبة ومنظومة القيم الأخلاقية التي تستند إليها الحضارات في نهضتها و رقيها وتقدمها.

نعم إن «الشعوب الراقية تؤدب حكامها؛ والشعوب المنحطة تُفرعن حكامها وتؤلههم، على حد تعبير جمال حمدان (١٩٢٨-١٩٩٣)صاحب شخصية مصر وفيلسوف الجغرافيا.[(١)]

حرس الله المحروسة من كل شر وسوء، وكلأها بعنايته ورحمته، ورعاها بعينه التي لا تنام، وأفاض عليها من عطائه الأبدي ووجوده السرمدي، وأمدها من خزائنه التي لا ينفذ معينها، وحفظها أمنا وأمانا لأبنائها المخلصين، وشعبها الأمين، وحصنا حصينا لأمتها العربية الفتية التي وقفت بجانبها وساندتها في الملمات والأزمات، آمين يارب العالمين ﴿**ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آَمِنِينَ**﴾ [يوسف: ٩٩] صدق الله العلي العظيم.

٣- قد يسأل سائل ما علاقة هذه المقدمة بموضوع البحث؟

وأجيب إن العلاقة بين الواقع الذي أعيشه وما أكتبه علاقة عضوية، فالكاتب ابن بيئته ونتاج محيطه الاجتماعي والسياسي؛ يعيش في مجتمع يتأثر بمجريات الوقائع فيه،

(١) جمال حمدان : مذكراته الخاصة ، تقديم ، عبد الحميد حمدان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠١٠ ، ص ٥٥ ، ترجمته في ، محمد خير رمضان : تتمة الأعلام للزركلي ، المجلد الأول ، دار ابن حزم ، بيروت ٢٠٠٢، ص ١١١.

والأحداث تنعكس على مشاعره، ووجدانه وعواطفه، وتوجه فكره وسلوكه، وتشكل رؤاه، وتحدد أبعاد شخصيته وتفرض عليه سبل اختيار منهجه؛

وفي ضوء ذلك فإن ما كنت أكتبه منذ أول لحظة كان محملا بالمرارة، كأني أشرب الحنظل، ومن أول سطر كان مملوءً بالألم والحزن والهم العام على هذا الوطن ولا أستطيع أن أنفصل عن هذا الوضع المؤلم و الواقع المهزوم والحال الذي صرنا إليه، أصبحنا فيه غرباء ونحن نعيش فيه وعلى أرضه الطيبة، ويهجم عليّ سؤال ينغرز كالسيف في عيني و قلبي؛

هل هذه مصر التي أحببناها ودافعنا عنها سنوات وسنوات؟

هل هذه أرض النيل الخالد والصهاينة ينتشرون في أنحائها يمرحون و وعلى أبنائها يتجسسون، ومن خيرات اقتصادها ينهبون ويسرقون؟

هل هذه مصر التي يتاجرون في أرضها بالقطاعي والجملة؟

هل هذه مصر التي يبيعون مصانعها السامقة «برخص التراب» التي بنيت في الستينيات بعرق الشعب ودموعه وطموحه وكفاحه؟

إحساس مدمر بالاغتراب، فأنت غريب في وطنك غريب عن ذاتك ومجتمعك!غريب مثل غربة أبي حيان التوحيدي (٤٠٣هـ) التي عبر عنها في «الإشارات الإلهية»، يتهاوى الإحساس بالانتماء داخل الأعماق، و يتآكل مثل الشاطئ الذي يجرفه نحر البحر، وتموت العواطف النبيلة داخل الإنسان وتصبح مثل الوردة الذابلة؟

ما الإنسان إلا مجموعة مشاعر وأحاسيس وعواطف وانفعالات، لذلك كان الإنسان يموت يوميا ألف مرة ومرة، حينما يرى كل شيء في وطنه ينزوي ويتآكل ثم يتهاوى و يندثر!!

أما حينما انتصرت الثورة المصرية بسواعد أبنائها ودماء شبابها وغضبة شعبها، فقد عادت الروح إليّ، وعاد الإحساس بانتمائي ووجودي إنسانا يتنفس بكرامة وحرية، ويمارس عمله بطلاقة وشجاعة؛

تحررت من الخوف الخارجي الذي يعد علينا أنفاسنا ويتتبع خطواتنا كظلنا ويتنصت على كلماتنا وصمتنا، تحررت من الخوف الداخلي الذي زرعوه في نفوسنا وتحت مسام جلودنا، وبثوه في ذاتنا ونشروه حولنا؛

شعرت بكينونتي وذاتيتي في وطني وخارج وطني، عدت إلى صدر وطني الدافئ وعاد وطني إليَّ.

لا جرم أن هذه الروح هبوطا وصعودا، سلبا وإيجابا حزنا وفرحا؛ تؤثر في مسار كتاباتي عن المستشرقين اليهود وغير اليهود.

٤- بادئ ذي بدء أحب أن أقرر إن كراهيتي لإسرائيل ليس لها حدود «فهي رأس جسر غربي، بل نوع جديد من الاستعمار الغربي في المنطقة» على حد تعبير عبد اللطيف الطيباوي (ت ١٩٨١)، وسوف أكرهها وألعنها وأنا في قبري إلى يوم القيامة؛ وأعتقد أن أدلتي قوية وحيثياتي جاهزة وبراهيني ساطعة؛ فإن ما رأيته من هذا الكيان الغاصب منذ أن وعيت هذا الوجود أري أننا بصدد عدوان مستمر؛ فقد كنت طفلا رضيعا حينما اغتصبت فلسطين (١٩٤٨) وصبيا حينما شاهدت العدوان الثلاثي في (١٩٥٦) وشابا في عدوان يونيو (١٩٦٧)، ورأيت سقوط المشروع النهضوي الذي قاده عبد الناصر، وجُندت في أواخر (١٩٦٧) في الجيش المصري مع مليون شاب مثلي، وعشت حرب الاستنزاف ورأيت بعيني زملائي الذين استشهدوا، والمدن التي دمرت، والمزارع الخضراء التي أحرقت، والمصانع التي نقلت، وغارات إسرائيل على جبهة القتال التي كانت تتواصل أحيانا طوال اليوم وقنابل الألف رطل التي كانت تتهاوى على رؤوسنا بلا توقف كأمطار المناطق الاستوائية، ثم غاراتها على العمق المصري؛ في أبي زعبل والخانكة وبحر البقر، والمنصورة، علاوة على مدن قناة السويس التي أصبحت مهجورة وتم تدميرها بواسطة مدفعية العدو وطيرانه. لقد ضاع من عمري سبع سنوات (١٩٦٧-١٩٧٣)، ومعي مليون شاب في ريعان الشباب، أمضيناها في محاربة العدو الصهيوني الذي اعتدى على أوطاننا ودمر مدننا وبدد

جهود شبابنا واستنزف ثرواتنا وأضعف اقتصادنا وشتت شمل أمتنا.

٥- على أنني حاولت أن أفرق بين كراهيتي لهذا الكيان الغاصب، ودراستي التي تدور حول المستشرقين اليهود، فليس كل يهودي صهيوني، لكن من المؤكد أن كل صهيوني يهودي، وفي ضوء ذلك تحليت بأول قاعدة من قواعد المنهج العلمي؛ وهي الموضوعية، أي استبعاد مشاعري الذاتية وأهوائي الشخصية، ورؤيتي القومية، وأنظر للمستشرق كما هو في الواقع من الناحية العلمية، من حيث كونه إنسانا عالِما يبحث عن الحقيقة، وأن جهوده المبذولة ومؤلفاته التي وضعها سارت على قاعدة الإنصاف والسعي إلى المعرفة، وبالجملة يريد أن يقدم جوانب معرفية ورؤى علمية تخدم الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الإنسانية.

ولذلك مدحت الكثير منهم ونوهت بمكانتهم في تاريخ الاستشراق، فلاشك أن «العالم العربي الحديث يقدر الجهود الرائعة التي بذلها المستشرقون في إحياء هذا التراث، ونشر كثير منه علي المناهج العلمية الدقيقة التي توخاها الأوربيون في نشر روائع الآداب اليونانية واللاتينية.ولكن هؤلاء المستشرقين لم ينشروا من هذا التراث إلا قليلا فلهم فضل السبق إلى الخير، ولهم فضل الإرشاد إلى مناهج التحقيق والتدقيق والاستقصاء في استكشاف الكتب واستخراجها والدلالة عليها ونشرها نشرا صحيحا أو مقاربا، ثم استغلالها بعد ذلك في وجوه البحث العلمي الرائع الخصب.» (١)

وعلى الرغم من هذا الإطراء المبالغ فيه و الحماس الزائد في هذه الشهادة، فهذه قضية لا ننكرها، ولكننا نعترف بها ونذكرها دائما ونقدر جهود المستشرقين.

يقول د.عبد الرحمن بدوي (١٩١٧-٢٠٠٢): «يشاء الله أن يهب الإسلام من الأوربيين من يؤرخون له كسياسة فيجيدون التأريخ، ومن يبحثون فيه كدين وحياة روحية فيتعمقون هذا البحث ويبلغون الذروة فيه أو يكادون، ومن يقبلون على الجانب

(١) أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب ، مجالس ثعلب ، القسم الأول ، تح عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون / ص ٦، من المقدمة التي كتبها طه حسين وآخرون .

الفيلولوجي [١] منه فيظفرون بنتائج على جانب من الخطر كبير. فكان له على رأس الأولين يوليوس فلوزن، وعلي رأس هؤلاء الأخيرين تيودر نِيولدكه، وكان سيد الباحثين فيه من الناحية الدينية خاصة والروحية عامة؛ اجنتس جولد تسيهر.» [٢]

لا يضيرني أن أعترف بأنني لم آخذ كلام أستاذي د.بدوي حقيقة مسلما بها، أو أقبله على إطلاقه، فقد توقفت طويلا عند جولد تسيهر وناقشته مناقشة طويلة، وقبلت منه ما يتفق مع ديني وعروبتي وضميري العلمي ورفضت ما يتعارض مع ذلك. [٣]

، لقد اتخذت معيارا قيّمت به جهود المستشرقين اليهود، وهو بواعث جهودهم، والدوافع التي تقف خلف هذا المجهود الرائع، أمن أجل خدمة العلم الإنساني وكشف كنوز الشرق وتاريخه ومن أجل المعرفة وتقدم الإنسانية ورقيها أم لتحقيق المشروع الصهيوني، والمسارعة في تحقيق هذه الأسطورة على أرضنا المقدسة؟

فإذا كانت الأولى وقفت منه موقفا إيجابيا، مثل «ماكس مايرهوف» وآخرون، أما إن كانت الثانية؛ فقد أزريت به وشهرت بأعماله ووضحت أين مكامن الضعف والتهافت في هذا العمل مثل «مارتن بلسنر»

نحن لا نهاجم الجماعات اليهودية لأنهم يهود معاذ الله، نحن نهاجمهم لأنهم اغتصبوا أرضنا وهتكوا عرضنا ودمروا زرعنا وهدموا بيوتنا، ونهبوا ثرواتنا وقتلوا أطفالنا ونساءنا ورجالنا وشيوخنا، واغتالوا علماءنا، وسرقوا الابتسامة من شفاهنا وحطموا البهجة في قلوبنا.

(١) المنهج الفيلولوجي التاريخي ؛ هو المنهج الذي يقرر أن دراسة حضارة ما يتم ن طريق تحليل النصوص الأصلية التي أنتجتها الحضارة تحليلا لغويا تاريخيا بناء على أسس محددة تحديدا دقيقا وعلى تحقيق المخطوط من آثارها .

(٢) موسوعة المستشرقين ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، ٢٠٠٣، ص ١٩٧

(٣) من المعلوم أن د، بدوي في أواخر حياته غير رأيه في المستشرقين ، وهاجمهم هجوما شديدا بالأسلوب نفسه الذي مدحهم به ، فليس عنده الوسط الأرسطي ، وأخرج لنا كتابين متميزين في تفنيد آراء المستشرقين هما ، دفاع عن القرآن ، ودفاع عن محمد ، وقد استفدت منهما استفادة عظيمة ، وعولت عليهما في نقد موقف المستشرقين من الحضارة العربية الإسلامية .

٦- إن إشكالية هذه الدراسة تكمن في الإجابة عن جملة أسئلة؛ ما الدوافع الحقيقية التي تقف وراء جهود المستشرقين اليهود في ولوجهم هذا الباب؟

وما البواعث الحقيقية التي جعلتهم يبذلون هذا المجهود الكبير و يتجشمون المشاق في دراسة تراث الحضارة العربية الإسلامية وما أنتجته في كافة المجالات الدينية والتاريخية والفلسفية والسياسية والبحث عن المخطوطات والحصول عليها وقراءتها وتحقيقها ونشرها نشرة علمية دقيقة؟

ما موقف المستشرقين اليهود من المشروع الصهيوني سواء المعاصرين له أم غير المعاصرين؟ ورؤيتهم للحركة الصهيونية في أثناء الدعوة إلى إيجاد وطن لهم في فلسطين، أو بعد نجاح المشروع الصهيوني وتحقيق أحلامهم الخيالية وأساطيرهم التاريخية؟

هل هناك قواسم مشتركة نستطيع أن ندركها عند جمهرة المستشرقين اليهود، تسمهم بسمات محددة، وتضمهم في عقد واحد أو «سبحة واحدة» على الرغم من اختلاف حباتها ولونها وحجمها، أعني التباين الواقع بينهم من حيث البيئة التي نبتوا فيها وتمايز العادات والتقاليد، واللغة التي ينطقون بها، والعصر الذي عاشوا فيه؟وعلى الجملة على الرغم من التنائي في المكان والزمان واللغة؟

لقد تتبعت بعمل دؤوب، وصبر جميل، وجهد متواصل، البحث عن هذه الدوافع، ومحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة بصراحة وصدق، متحريا الموضوعية، مقدرا أمانة الكلمة، ومسؤولية الكاتب، مدركا أهمية دور المفكر في مجتمعه والرسالة المنوطة به؛ يقول د.زكي نجيب محمود (ت١٩٩٣): «أنت إذ تقرأ ما كتبه آخرون فقد تقبل في صمت وقد ترفض في صمت فلا يؤرق ضميرك شيء، أما إذا كتبت ليقرأ الآخرون، فهنا تحس عند كل عبارة تخطها وازع الضمير يراجعك ويحاسبك، فتأخذ في نوع من إمعان فكرك فيما تريد أن تقدمه لقارئك وتتساءل عند كل كلمة: تُرى أهي الكلمة التي تؤتمن على حمل المعنى المراد نقله إلى الناس.» (١)

---

(١)ـ- عربي بين ثقافتين ، دار الشروق ، القاهرة ، ص ٤١

٧- في نهاية كتابه موقف الاستشراق من السيرة، تساءل د.أكرم ضياء العمري، ما العمل في مواجهة ظاهرة الاستشراق؟وبلور إجابته في قوله: العمل يتلخص في جانبين:

الأول: أن نمثل أنفسنا أمام أنفسنا، بأن تقوم مؤسساتنا العلمية برسم الصورة الثقافية، والتاريخية، والعقدية لأمة الإسلام دون أن تخضع للأفكار المسبقة التي رسمها المستشرقون، فهذا جانب مهم وأولي، وهو أحرى بالاهتمام لأن فيه تحصينًا للأمة. والثاني: يتحقق إذا بلغنا المستوى المناسب من تهيئة أصحاب الخبرات فنقوم عندئذ بتمثيل أنفسنا أمام الآخرين وبلغاتهم» (١).

وأكد هذه الدعوة د.عابد الجابري (ت ٢٠١١) في قوله: إذا شعرنا بضرورة الرد عليهم فيجب أن يكون لا بصب اللعنات عليهم من الخارج بل بتحليل فكرهم من داخله والكشف عن دوافعه وأهدافه.(٢)

وهذا البحث مشاركة منا في الدفاع عن ثوابت أمتنا، ومساهمة في صد عدوان المعتدين، وكيد المفسدين، وإظهار جانب من الحقيقة الساطعة، وعرض موجز قدر الطاقة لجانبها المشرق، وإظهار سماحة الإسلام مع الآخر، وجهود رسولنا في إرساء القيم الخلقية والمثل العليا في قيادة المجتمع، وبرهان قاطع على أصالة الحضارة العربية الإسلامية، ودورها الريادي في خدمة التراث الإنساني.

٨- ينقسم هذا البحث إلى بابين؛ الباب الأول، يتناول نبذة مختصرة عن حياة المستشرقين اليهود ومسار حياتهم وجهودهم العلمية، وما بذلوه من تحقيق ونشر المخطوطات فضلا عن مؤلفاتهم وترجماتهم للمؤلفات العربية إلى اللغات الأوربية، وهنا مسألة أود لفت الانتباه إليها وهي؛ إنني فصلت بين قضيتين؛ الأولى، حينما عرضت سيرة حياة المستشرقين عرضتها كما وردت في المراجع،

(١) موقف الاستشراق من السنة والسيرة ص ٧٦.
(٢) محمد عابد الجابري : الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية ص ٣٣٥ (ضمن مناهج المستشرقين ، المنظمة العربية للتربية والثقافة ، تونس ، ١٩٨٥).

وأشرت إلى مؤلفاتهم وشرحت مضمونها قدر ما استطعت الرجوع إلى معظمها.

وقد وقفت موقفا محايدا ونقلت وجهة نظرهم بأمانة كما وردت في كتبهم، عن القرآن والرسول ﷺ والتاريخ الإسلامي.

الثانية؛ عقبت على وجهة نظر هؤلاء المستشرقين، ونقدت موقفهم، وتعاملت معهم من منظور وطني عربي إسلامي، وشرحت وجهة نظري فيما ألفوه من كتب وما عرضوه من آراء، وما طرحوه من أفكار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قمت بإعطاء فكرة لا بأس بها عن الكتب المخطوطة التي حققها المستشرقون اليهود أو ألفوها وأشرت إلى مضمون هذه الكتب وأعطيت القارئ تصورا وافيا وشرحا كافيا عنها وكذلك بالنسبة إلى علماء العرب الذين كانوا محل التحقيق والدراسة كلما أمكن ذلك، وأسعفتني المراجع، وواتتني الطاقة.

الباب الثاني؛ وقفت فيه موقفا تحليليا نقديا لدور المستشرقين اليهود في الحركة الاستشراقية، وتعاملت معهم من خلال نظرة شاملة ورؤية كلية، وقد قسمته إلى ثلاثة فصول؛

في الأول عرضت القواسم المشتركة بينهم التي تجمعهم في صعيد واحد، استطعت أن استنبطها من خلال قراءة متأنية دقيقة لسيرة حياتهم وتتبع رحلاتهم وأعمالهم ودراسة نفسياتهم و معايشة أهدافهم وطموحاتهم. مؤمنا بعدم وجود «قانون واحد ينطبق على كل إنسان؛ فالإنسان يغير نفسه بإرادته الذاتية»[(١)].

الثاني؛ توقفت طويلا أمام الدوافع التي دفعتهم للاندفاع إلى ميدان الاستشراق وطرق أبوابه، وحاولت سبر أغوارهم وتعقب الأسباب الحقيقية، وكشفها أمام القارئ سواء كانت مقبولة في العقل أم مرذولة. وأسهبت في ذلك قدر طاقتي وما أفدته من المراجع وما استنبطته من بين السطور والكلمات.

---

(١) وحيد الدين خان : الدين في مواجهة العلم ، ت، ظفر الدين خان ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٧

أما الفصل الثالث والأخير، فقد تناولت فيه مبحثين في الأول، ناقشت موقف المستشرقين اليهود من الحركة الصهيونية، وقيام إسرائيل، وبخاصة أن طائفة منهم شهدت بداية الحركة الصهيونية وطائفة أخرى واكبت نجاح الحركة واشتداد عودها، وطائفة ثالثة شاركت في قيام الكيان الصهيوني على أرضنا السليبة.

وفي المبحث الثاني، ألقيت نظرة تقويمية لأعمالهم العلمية ووضعتها في ميزان النقد العلمي وأظهرت الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية بلا جور أو تحيز، ورائدي الأنصاف والنزاهة الفكرية.

وقد أنهيت البحث بجملة من النتائج التي استنبطتها من خلال القراءة والمعايشة لهؤلاء المستشرقين، وأيضا استنتجتها من رؤاهم وطموحاتهم، علاوة على ما توصلت إليه من مجريات الوقائع التي عشتها، والأحداث التي تلفنا، وما يحيط بنا من هموم وقضايا قد يبدو لها حل في المنظور القريب. والقضية تعتمد على همة العرب ووحدة كلمتنا وتوحيد صفوفنا وطرح مشروع نهضوي يضمنا جميعا نعمل من أجله وصولا للغد المأمول و ارتيادا لآفاق المستقبل.

٨- من الأمانة العلمية أن أشير أنني اعتمدت اعتمادا واسعا على «موسوعة المستشرقين» للدكتور بدوي، لاسيما فيما يتعلق بحياة المستشرقين ورحلاتهم ووظائفهم وإنتاجهم العلمي، وتقييمه لهم أحيانا، وعلى «سيرته الذاتية» التي كتبها في جزأين وفيها تعرض إلى سيرة بعض المستشرقين الذين عاصرهم في أثناء دراسته بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وكذلك عولت على كتاب «المستشرقون» لنجيب العقيقي، ويعد من بواكير البحوث العلمية التي اقتحمت ميدان الاستشراق وأنارت دربه وكشفت ظواهره وقدمت جهود رجاله، وقد ركز على إنتاجهم العلمي أكثر من سيرتهم، وقسم كتابه على أساس الإقليم الجغرافي، فتكلم على الاستشراق الانجليزي ثم الألماني والهولندي والفرنسي والروسي والأسباني والأمريكي وهكذا، وبالجملة رسم معالم الطريق إلى الباحثين الذين يبغون ارتياد هذا المجال. هذه نقطة؛

النقطة الأخرى، تناول العديد من الباحثين حركة الاستشراق وناقشوا أبعادها من حيث التعريف والنشأة والدوافع والوسائل والنتائج، وهناك دراسات عامة كثر وجادة في هذا المجال، على أن جمهرة من الباحثين راموا التخصص و قصدوا تناول جانب واحد من الاستشراق، فقدم روتي بارت وصلاح المنجد دراسات عن الاستشراق الألماني، وذهب عبد اللطيف الطيباوي يبحث ويناقش الاستشراق الانجليزي، وعكف محمود المقداد يدرس ويقيم جهود الاستشراق الفرنسي، وبذل مازن المطبقاني وعلى النملة جهودا طيبة ومشكورة في تقديم الاستشراق الأمريكي وأساليبه الملتوية وكشف أغراضه الاستعمارية.

وهناك باحثون آخرون أسهموا في هذه المجالات كافة من خلال تناول قضايا علمية تتعلق بالقرآن والسنة وحياة الرسول والعقيدة والفقه والتصوف والمنطق والفلسفة والتاريخ الإسلامي....وتوفروا على مناقشة إفتراءات بعض المستشرقين والرد عليهم ردا علميا.

وبقي ميدان الاستشراق اليهودي بعيدا عن أنظار الباحثين، ولم يتم دراسته إلا من خلال ظاهرة الاستشراق بعامة، ولم أجد باحثا - حسب اطلاعي - تناول هذا المجال بدراسة خاصة، وقد قرأت مؤخرا دراسة عن الاستشراق الاسرائيلي في المصادر العبرية، وقد ناقش الباحث في المبحث السادس (ص ٨٣ -٩٣) الدور اليهودي والإسرائيلي في الحركة الاستشراقية الغربية، تناول فيه ثلاث شخصيات من المستشرقين اليهود بإيجاز شديد.[(١)]

آمل وأرجو أن تكون هذه الدراسة إسهاما في دراسة الاستشراق اليهودي ولبنة أضعها لمن يأتي بعدي ويبني عليها ولايهدم لكي يعلو البنيان، ويكشف جوانب أغفلتها أوغابت عني، ويسد النقص والثغرات ويضيف إلى ماستطعت أن أقدمه، فهذا جهدي وعملي وللناقدين كل الحق في قبول هذا العمل العلمي أو رفضه على أن يقدموا لنا

(١) محمد جلاء إدريس : الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، طبعة العربي ، القاهرة ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥.

مسوغات القبول أو الرفض.

١٠- لا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير والمحبة والإعزاز إلى فضيلة الشيخ / خميس بن راشد العدوي، الباحث بوزارة الأوقاف العمانية، لتفضله بكتابة مقدمة البحث وترحيبه بذلك، فهو باحث مجد وأديب ذواقة وقارئ نهم ورجل طلعة، يتمتع بحس ديني عال؛ ويكون مع الدكتور زكريا المحرمي، وخالد الوهيبي، مدرسة فكرية مستنيرة تحاول التجديد في الفكر الإسلامي وفي منهجه، إذ تريد أن تشيد دعائم المنهج العقلي الذي كان له الصدارة في الحضارة الإسلامية، على أن يسير في خط مواز مع المنهج النقلي، وإعادة الروح إلى الإسلام الحركي النشط الذي يلامس قضايا الحياة ويغير واقع الناس إلى الأفضل، ويأخذ بيد المسلم إلى مدارج الرقي وطريق الاستنارة؛ وعلى الجملة، يحقق لهم الجنة على الأرض، مع عدم إغفال الفوز بالآخرة، ويخرج الإسلام من القمقم الذي حبس فيه طوال عصور التخلف و الظلم والاستبداد، إذ ظل يدور في قضايا الحيض والنفاس ومسح الرقبة، والمساحة التي يجب أن نبللها من شعر الرأس، ولم يتجاوز قضايا العبادات، والقضايا الهامشية التي لا تمس السلطة السياسية الحاكمة، وهذا ما قامت به الدولة الأموية ومن بعدها العباسية، وتم نفي الإسلام الحركي الحضاري خارج التاريخ.

يحاول هؤلاء الشبان الثلاثة أن يتسلحوا بالمنهج العلمي، والنظرة المستنيرة التي تخرج الإسلام من نطاق الشعائر والطقوس إلى نطاق الإسلام الحضاري بكل ما يمثله من آفاق رحبة تصنع حضارة معاصرة للمسلمين تنافس الأمم الأخرى.

وبالجملة فأنت أمام شباب طلعة محبون للعلم باحثون عن المعرفة، يحملون مصباح ديوجانس الكلبي.

وقد فاتحت الشيخ خميس العدوي، أن يكتب مقدمة لبحثي هذا، فاعتذر من منطلق أن العادة جرت أن يكتب الأستاذ مقدمة لتلميذه، وليس العكس، ومن المهم بمكان أن يكون صاحب المقدمة له حيثية وظيفية في السلم الاجتماعي، وصدارة علمية بصرف

النظر عن الواقع العلمي، ولكنني أردت أن أبني قاعدة أخرى لماذا لا يكون المعيار هو التفوق العلمي وسعة الاطلاع وليس الحيثية الوظيفية التي في الواقع لا تقدم ولا تؤخر، ومن ثم طلبت منه أن نكسر هذه القواعد البالية، ويكون معيارنا هو الأفضل والأحسن، وقد عرفت الشيخ خميس منذ سنوات وعرفت فيه الجد والإخلاص هو وزملائه، فناصرتهم في منهجهم، وأيدتهم فيما ذهبوا إليه وشددت على أيديهم، وشجعتهم على المزيد من العطاء، والحياة قادرة أن تغربل الأفكار ولن يبق في هذه الأرض إلا ما ينفع الناس ويمكث فيها، ويقدم لهم زادا معرفيا إيجابيا يقتاتون منه في حياتهم اليومية.

كنت أرجو أن أسمع وجهة نظر كثير من الزملاء فيما عالجته من إشكاليات، وما طرحته من أفكار، وما توصلت إليه من نتائج، لكن الإجابة كانت محزنة:

وقال كل خليل كنت آمله　　　لا ألفينك إني عنك مشغول

إذ إنني مؤمن بأن نتائج العقل الجمعي أفضل كثيرا من معطيات العقل الفردي، وأردد دائما حكمة أبي حيان التوحيدي (ت٤٠٣هـ) عن فهم واقتناع «ليس في الدنيا محسوب إلا وهو محتاج إلى تثقيف، والمستعين أحزم من المستبد، ومن تفرد لم يكمل، ومن شاور لم ينقص»[(١)]

كذلك من باب الاعتراف بالجميل، والإشارة إلى مساعدات الآخرين، أن أتقدم بالشكر والعرفان لأبنائي أمناء مكتبة معهد العلوم الشرعية، على ما بذلوه من جهد وما قدموه من مصادر ومراجع وخدمات، وما ذللوه من عقبات ومشكلات، فجزاهم الله خير الجزاء.

١١- إن الحياة منحة من الله، لذا تستحق أن نحياها بكل أبعادها ونحقق فيها بعض ما نطمح إليه عن طريق العمل الشاق والجهد المبذول والعرق المسفوح والنضال المستمر والكفاح المتواصل، ونلغي من قاموسنا «كلمة المستحيل» فتهبنا الحياة ما كنا نأمل فيه، وما حلمنا به، بعضه أو معظمه؛ متسلحين بقواعد الإيمان والعقل

(١) الإمتاع والمؤانسة، تح أحمد أمين، وأحمد الزين، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤٢، ج١/ ٦٥

المستنير، مؤمنين بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. [يوسف: ٩٠]

فلا شك أن «الأعمار تقاس بالمآثر والأعمال لا بطي السنين والأزمان.» (١)

ولما كانت أعمارنا هبة من العزيز القدير فعلينا أن نصيغها في عمل مثمر وإنتاج نافع يرقى بأمتنا إلى مدارج المجد والمكانة التي تستحقها، والمرتقى الصاعد إلى الآفاق.

نتوجه إلى العلي القدير بقلوبنا وعقولنا أن يهبنا الصحة والعافية والعزيمة والقوة والرشاد والتوفيق، لكي نواصل الطريق في الدفاع عن القيم الخلقية والمبادئ الإنسانية وقواعد الدين، ومقررات الشريعة، إنه سميع مجيب، نعم المولى ونعم النصير.

محمد الزيني

مدينة روي العامرة. سلطنة عمان

في ٢١رجب١٤٣٢ هـ

٢٣ يونيو ٢٠١١

---

(١) مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ج١/ ٨٥